رحلة ماجلان حول العالم لأنطونيو بيجافيتا

بقلم: الدكتور سليم أنطون

تمهيد :

شارك آلاف من الناس فى النجاح الذى حققته البشرية فى « عصر الكشوف البحرية » ، ويجىء فى مقدمة هؤلاء جميعا ثلاثة رجال هم فاسكو دى جاما وكريستوفر كولومبوس وفرديناند ماجلان . فقد استطاعوا أن يغيروا خريطة العالم القديم تغييرا كاملا ، وأن يدفعوا حدوده الى آفاق لم يتخيلها أكثر معاصريهم جرأة وطموحا . كشف دى جاما الطريق الى الهند بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ففتح الشرق الأقصى أمام أوربا . أما كولمبوس فقد عبر بحر الظلمات أى المحيط الأطلنطى ليكتشف أمريكا ويرفع الستار عن العالم الجديد . وجاء ماجلان ليصل بين العالمين الذين انفتحا أمام الدنيا فجأة ، عالم الشرق الأقصى والعالم الجديد . وقد استطاع أن يحقق هذه الصلة باكتشاف الممر الذى يعرف باسمه فى الطرف الجنوبى من أمريكا الجنوبية والذى يصل بين المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى .

نجح ماجلان مثلما نجح دى جاما فى العثور على طريق بديل للوصول الى جزر التوابل ، ولكنه نجح أيضا فيما عجز كولمبوس عن تحقيقه، وهو الابحار حول الكرة الأرضية واثبات كروية الأرض بطريقة عملية لأول مرة فى تاريخ الانسان. كان ماجلان كبحار وجغرافى ومستكشف رجلا عظيما ، ويعده الكثيرون أعظم من كل من دى جاما وكولمبوس ، بل « أعظم البحارة القدامى والمحدثين قاطبة » .

كانت رحلة ماجلان حول العالم – ولا تزال – أسطورة بالغة الروعة لشجاعة الانسان وضعفه ، والهام القائد وسقطاته ، وتعاون الجماعة وتنابذها . وهى قصة لكفاح هذه الجماعة فى رحلة طويلة تمر بمراحل متنوعة من الأمل واليأس ، وهى قبل كل شىء رواية لانتصار انسانى غير مسبوق . ويرجع الفضل فى حفظ هذه الرواية بتفاصيلها الحية وأحداثها اليومية الى كتابه شاهد عيان هو أنطونيو بيجافيتا Antonio Pigafetta

هذا الشاب الايطالى الذى رافق ماجلان وكتب احداث الرحلة بدقة كبيرة،والذى يدين له ماجلان بالفضل على هذا السجل الرائع للرحلة ، الذى أذاع صيته وخلد عمله ، اذ ما جدوى العمل الخالد اذا لم يتناقله الرواة . « وما نسميه نحن « التاريخ » ليس سلسلة الحوادث التى تتابعت فى الزمان والمكان ، بل هو ما ذكر فقط من الحوادث فى مؤلفات العلماء والشعراء . ولو لم يوجد المؤرخ الذى يروى ، والفنان الذى يخلد الذكرى ، لطوى الظلام مشاهير الأبطال ، ولاندثرت أعظم الأعمال روعة » . ومن ناحية أخرى يدين بيجافيتا لماجلان ورحلته ، فان هذا الانسان المغمور قد أصبح بهذه الرواية مصدرا تعود اليه الأجيال المتعاقبة كلما تحدثت عن هذه الرحلة الخالدة . ويكفيه فخرا أن شكسبير قد استعان فيما بعد بالصفحات التى كتبها فى وصف ثورة البحر واضطرابه ، فادخلها الشاعر الكبير كمشهد فى مسرحيته المعروفة «العاصفة» .

عصر الكشوف البحرية :

مع بداية القرن الخامس عشر ، لم يكن العالم يعرف شيئا كثيرا عن المحيط الأطلنطى أو بحر الظلمات كما كان يسمى ، وكان يجهل وجود القارة الأمريكية ، وبالتالى لم يكن هناك فى مخيلة الناس شيء مثل هذا المحيط العظيم الذى يعرف بالمحيط الهادى أو الباسيفيكى ، والذى يفصل أمريكا عن آسيا . وكانت تجارة التوابل فى أوربا قد بلغت شأنا عظيما ، وتطلع الأوربيون الى مصدر هذه التوابل فى الهند وجزر الهندالشرقية. وكان الطريق التقليدى لنقلها هو الطريق البحرى بين ميناء هرموز على الخليج العربى أو ميناءعدن على البحر الأحمر ، ثم برا الى الموانى العربية على البحر المتوسط ومنها الى أوربا . واحتكرت جمهورية البندقية بفضل أسطولها الكبير ، وحسن علاقاتها بالعرب ، نقل التوابل من الموانى العربية الى البندقية حيث توزع منها الى مراكز التجارة فى أوربا . وكون تجار البندقية ثروات طائلة ، مما أوغر صدور الدول الأوربية الأخرى ، ودفع بعضها الى محاولة الوصول الى الهند عن طريق الدوران حول افريقيا .

وفى خلال قرن من الزمان أو نحو ذلك تتابعت الكشوف البحرية ، ترفع الستار سنة بعد سنة عن أراض جديدة وبحار مجهولة ، حتى عرف العالم فى هذه الحقبة مالم يعرفه منذ ظهور الانسان على وجه الأرض . وكانت السرعة التى تمت بها هذه الكشوف سرعة مدهشة لم يعرفها العالم من قبل أو من بعد . وفى هذه الحقبة التاريخية التى تعرف «بعصر الكشوف البحرية» أدرك العالم القديم أنه لا يشغل سوى قدرا محدودا من مساحة الكرة الأرضية ، وأن هناك آفاقا متسعةللكشف الجغرافى والفتح الاستعمارى.

استهلت دول أوربا القرن الخامس عشر وهى مشغولة جميعا بمشاكلها الداخلية باستثناء أسبانيا والبرتغال حيث كانت الظروف السياسية أكثر استقرارا . وتجمعت عدة عوامل جعلت البرتغال تنظر الى البحر كمخرج وحيد لطموحها ، فهى معزولة عن أوربا بأسبانيا ، وليس أمامها أى فرصة للتوسع على حساب جارتها الكبيرة ، كما أنها محرومة من أى منفذ على البحر المتوسط فان سواحلها كلها تطل على المحيط الأطلنطى .

وكانت الملاحة فى هذا المحيط الذى عرف ببحر الظلمات ضربا من المخاطرة غير المأمونة .

وظهر فى هذه الحقبة أمير برتغالى عرف فى التاريخ باسم « هنرى الملاح » (١٣٩٥ — ١٤٦٠) رغم انه لم يركب البحر سوى مرة واحدة ، ولكنه أدى للملاحة والملاحين خدمات جليلة . فقد ثابر على جمع كل المعلومات الجغرافية والملاحية المتاحة فى ذلك الوقت ، وكون مكتبة تضم أشتات الكتب الجغرافية والخرائط من جميع أنحاء العالم، وثابر على سؤال ربابنة السفن والبحارة عن مشاهداتهم ، ودعا اليه العلماء والجغرافيين وكان بينهم كثير من العرب . ودعم الأمير هذه الناحية النظرية بالناحية العملية ، فاهتم بتحسين صناعة السفن حتى ترك للبرتغال أسطولا حديثا من مراكب متينة كبيرة تستطيع اقتحام البحر .

كان هنرى الملاح يؤمن بامكان الوصول الى الهند بالالتفاف حول افريقيا . ولكن الساحل الغربى لأفريقيا كان مجهولا تماما للاوربيين ، وكان يحيط به كثير من الغموض والخرافات التى تقول ان أية سفينة تجرؤ على السير الى تلك المجاهل هالكة لا محالة . وبدأ البرتغاليون بتشجيع من هذا الرجل القيام برحلات على طول ساحل افريقيا الغربى وازدادوا توغلا نحو الجنوب . ففى عام ١٤٦١ ، أى بعد عام من وفاة « هنرى الملاح » ، وصلوا الى خليج غينيا ، وفى عام ١٤٨٢ وصل «ديجو كام» الى مصب نهر الكونجو ، وفى عام ١٤٨٧ بلغ بارثولوموديار رأس الرجاء الصالح .

وفى هذه الأثناء أرسلت البرتغال عام ١٤٨٦ بعثة الى الهند عن طريق مصر . وفى طريق العودة توقف قائدها « كوفيلهام » ف جزيرة سوقطرا جنوب شبه الجزيرة العربية ، وهناك سمع من البحارة العرب عن « جزيرة القمر » أو مدغشقر . فأسرع بارسال خطاب من القاهرة الى ملك البرتغال يحثه فيها أن يواصل ايفاد البعثات الى الساحل الافريقى حتى تصل الى هذه الجزيرة أمام الساحل الشرقى حيث يصبح الطريق مفتوحا الى الهند بمعونة المرشدين العرب . ولم ينقض وقت طويل قبل أن يبلغ « فاسكو دى جاما » الساحل الهندى فى مايو ١٤٩٨ .

وفى عام ١٤٩٢ عبر بحار من جنوه هو كريستوفر كولمبوس المحيط الأطلنطى ووصل الى سواحل أمريكا فى رحلة لم تستغرق سوى أسابيع قليلة . واستطاع بذلك أن يكتشف لحساب أسبانيا جزر الهند الغربية وأن ظل يعتقد أنه بلغ سواحل آسيا فى الشرق الأقصى . اثبت كولمبوس برحلاته الأربع المتتالية أن عبور بحر الظلمات لم يعد شيئا عسيرا ، كما كان هذا الكشف نقطة تحول خطير فى تاريخ العالم ، فنحن نأخذه عادة كتاريخ لاكتشاف أمريكا . اما بالنسبة لمعاصرى كولمبوس فان الأمر لم يخرج عن اكتشاف جزر كانت تتناقلها الأساطير أو الوصول الى جزر جنوب شرق آسيا . واقتضى الأمر بعض الوقت حتى يعرف العالم أن أمريكا قارة ضخمة تقع بين اوربا وآسيا .

كان كولمبوس قد اتجه أولا الى ملك البرتغال طالبا مساعدته فى مشروعه ، ولكنه أعرض عنه فى وقت كانت البرتغال مشغولة بالبحث عن طريق الى الهند بالالتفاف حول أفريقيا . لذلك كان لاعلان اكتشاف كولمبوس هذه الأراضى الجديدة لحساب أسبانيا وقع الصاعقة فى البلاط البرتغالى . اذ كانت البرتغال قد حصلت من البابا على مرسوم يخول لها حق امتلاك الأراضى التى تكتشفها الى الشرق من رأس بوجادور على ساحل أفريقيا

الغربى . ولكن ماجدوى هذا المرسوم الآن اذا كان كولمبوس قد وصل الى هذه الأراضي – كما كان يعتقد – بالابحار نحو الغرب . وكاد التنافس بين الدولتين ينقلب الى حرب لولا تدخل البابا الذى وضع عام ١٤٩٣ خطا وهميا يمر الى الغرب من جزر فردا فى المحيط الأطلنطى ويصل بين القطبين بحيث تقع الأراضى التى تكتشف شرق هذا الخط من نصيب البرتغال والى الغرب منه من نصيب اسبانيا ، وقد عدل هذا التقسيم بناء على طلب البرتغال عام ١٤٩٤ فازيح خط التقسيم الى الغرب قليلا ، وكان من أثر هذا أن كانت البرازيل عندما اكتشفت من نصيب البرتغال .

هذا الخط الذى يقسم العالم الى جزئين متساويين لا يقدم حلا مقبولا سواء من الناحية السياسية أو من الناحية العملية . فليس معقولا أن يقسم العالم كله بين دولتين فقط ، كما أن هذا الحل لا يقفل الباب نهائيا فى وجه النزاع ، فمثلا هل تقع جزر التوابل فى جنوب شرق آسيا الى الشرق أو الغرب من خط التقسيم ؟ وبالرغم من هذا ، فقد نجح هذا الحل فى منع الاحتكاك بين الجارتين زمنا طويلا ، انصرفت خلاله أسبانيا الى أطماعها فى أمريكا والبرتغال الى مغامراتها فى أفريقيا وآسيا .

أثار نجاح كولمبوس ودى جاما خيال معاصريهم ، وتوالت الاكتشافات البحرية واستولى على الناس ميل جنونى للمغامرات البحرية . وبعد أن كان الحصول على البحارة لأى بعثة كشفية مهمة شاقة ، أصبح الاقبال شديدا من الحكام والتجار والبحارة على تجهيز هذه البعوث والاشتراك فيها . وغدت هذه الرحلات أقل خطرا وأكثر ربحا . وفى خلال ربع قرن عرف البرتغاليون الكثير من سواحل أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، كما استكشف الأسبان جانبا كبيرا من السواحل الأمريكية المطلة على المحيط الأطلنطى وبدأوا يتوغلون الى الداخل . وفى عام ١٥١٥ عبر نونيز دى بلباو القارة الأمريكية الى ساحلها الغربى وأصبح أول أوربى يرى ذلك المحيط المتسع الذى سمى فيما بعد بالمحيط الهادى . وهكذا عرف الأوربيون لأول مرة المحيطات الثلاثة الكبرى ؛ الهندى والأطلنطى والهادى ، وأصبح المسرح ممهدا لظهور ماجلان وتقبل دعوته . فقد كان الاعتقاد السائد أن القارة الأمريكية التى اكتشفت حديثا عبارة عن كتلة ضخمة من اليابسة تصل بين القطبين الشمالى والجنوبى وتفصل تماما بين المحيطين الأطلنطى والهادى . وجاء ماجلان يبشر برأى مختلف يقول بان هناك ممرا بحريا يصل بين المحيطين ، ويضع مشروعا جزئيا لارسال بعثة بحرية تدور حول العالم فى اتجاه الغرب . وسواء كان رأى ماجلان عن معرفة سابقة وصلته بطريقة ما أو عن مجرد تخمين ، فقد نجح فى أن يكون أول من قاد بعثة بحرية تدور حول الأرض ، وأول من وصل الى المحيط الهادى عن طريق مضيق «ماجلان» الذى اكتشفه فى الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية . وبذلك كانت رحلته اثباتا عمليا لكروية الأرض ولامكان الوصول الى جزر التوابل فى الشرق بالابحار غربا . ومن الطبيعى أن نعتبر رحلة ماجلان قمة النجاح الذى حققته البشرية فى عصر الكشوف البحرية .

فرديناند ماجلان :

ولد ماجلان عام ١٤٨٠ من أسرة من طبقة النبلاء فى البرتغال ، ونشأ فى عصر كان يموج

بأنباء الفتوحات البحرية العظيمة ، ويثير فى نفوس الشباب الرغبة الى الأسفار البعيدة .

وكان لهذا أثره على « ماجلان » فقرر أن يشارك فى هذه المغامرات فى أول فرصة تسنح له . وعندما بلغ الرابعة والعشرين كانت البرتغال تجهز حملة عظيمة مكونة من عشرين سفينة ضخمة وألف وخمسمائة رجل بقيادة الاميرال « الميده » .وكانت المهمة الموكولة لهذا الأسطول هى السيطرة على جميع مراكز التجارة فى الطريق الى الهند والتحكم فى المضايق البحرية من جبل طارق الى سنغافورة واحتكار التجارة البحرية فى المحيط الهندى لصالح البرتغال وحدها . غادر ماجلان البرتغال مع هذه الحملة فى مارس ١٥٠٥ وجرح فى أحدى المعارك بالهند بعد عام واحد فنقل الى أفريقيا ومنها عاد الى البرتغال فى عام ١٥٠٧ .

وجاءت المهمة الثانية لماجلان فى مالقة Malacca هذه المدينة الزاهرة الواقعة على المضيق المؤدى الى جزر التوابل والتى كانت معبرا للتجارة بين الصين والهند وملتقى السفن من بلاد الشرق الأقصى . وكانت البرتغال قد استقرت فى الهند ولكنها كانت تطمع فى جزر التوابل فى الشرق، فأرسلت عام ١٥٠٩ عمارة من أربع سفن تحت ستار الرغبة فى التجارة كى تتجسس على هذه المدينة . ولكن حاكم المدينة ــ وقد راعته قوة السفن وتسليحها ــ دبر مكيدة خسر فيها البرتغاليون ثلث رجالهم . وأبلى « ماجلان »، الذى كان بين رجال هذه السفن ، بلاء حسنا لفت أنظار قادته فعين ضابطا فى الأسطول الذى عهد اليه بالثأر لهذه الهزيمة . وفى عام ١٥١١ عاد « ماجلان » مرة ثانية الى مالقة وشارك فى المعركة التى انتهت بالاستيلاء عليها .

وفى العام التالى عاد « ماجلان » الى البرتغال ليجد لشبونه وقد تغيرت تماما خلال السنوات التى قضاها فى الهند بفضل الثروة التى هبطت عليها من مستعمراتها الجديدة . أما هو فلم يخرج من غمار الكفاح الا بآثار جراحه وعبد اشتراه فى مالقة . ولكن خيرا من هذا كله أنه كسب صديقا من زملاء السلاح هو « فرنتشسكوسراو » الذى استوطن جزر التوابل تاركا نفسه لحياة الدعة فى هذا الفردوس الأرضى . فقد استمر الصديقان يتبادلان الكتابة ، وأغلب الظن أن تعلق « ماجلان » بجزر التوابل وربما فكرة البحث عنها بالابحار غربا قد نمت وترعرعت فى نفس ماجلان كنتيجة لهذه الرسائل .

وفى عام ١٥١٣ اشترك ماجلان فى حملة تأديبية على المغرب ، وأصيب بجرح جعل قدمه اليسرى شبه مشلولة . ولكنه رفض اعتزال الخدمة ، فعهد اليه بحراسة قطعان الماشية التى نهبها البرتغاليون وحدث أن هرب بعض هذهالمواشى وثارت حول أمانته الشائعات ولكن أحدا لم يجرؤ على اتهامه علنا . فغضب لكرامته وعاد الى البرتغال دون اذن من رئاسته لمقابلة الملك ليلتمس تعيينه فى وظيفة تليق بخبرته ، ولكن الملك يرفض المقابلة ويطلب منه العودة الى مقر عمله ، فيمتثل للأمر ثم يعتزل الخدمة ومعه شهادة تثبت براءته وحسن بلائه . عاد ماجلان يطلب مقابلة الملك لينفى عن نفسه التهمة التى لصقت به ويطلب رفع مرتبه بسبب جراحه التى تركته عاجزا عن مواصلة الخدمة . ولكن الملك يرفض طلبه ببرود مما يدفع ماجلان الى التماس الاذن بالعمل فى خدمة أى دولة أجنبية قد يجد لديها متسعا لطموحه فيوافق الملك على الفور دون مبالاة .

أمضى ماجلان هذه الفترة من حياته فى دراسة

جادة للمشروع الذى يختمر فى ذهنه ، فهو يقابل البحارة العائدين من الأصقاع البعيدة ويتردد على المكتبات لمطالعة الكتب والتقارير عن الرحلات المعاصرة وفحص الخرائط الملاحية الجديدة. والتقى أثناء هذا النشاط بفلكى حاذق هو « روىفاليرو » وتوثقت علاقته به . فقد كان فاليرو خبيرا فى رسم الخرائط وله معرفة عريضة بجغرافية البحار وان كانت تنقصه الخبرة العملية بالملاحة .وجد الصديقان أن كلا منهما يكمل الآخر من حيث الخبرة والتخصص ، كما يجمع بينهما نقمتهما المشتركة على الملك فقد حرم فاليرو أيضا من وظيفة فلكى البلاط، وهى وظيفة كان أحق بها من غيره . ولكن هذه الصداقة من ناحية أخرى كانت تعتمد على أساس ضعيف بسبب التناقض العجيب بين شخصيتيهما ، فماجلان يمتاز بهدوء مثير يشوبه كثير من الغموض، أما فاليرو فانه سريع الانفعال عصبى المزاج متكبر ومشاكس . وتحت هذه الظروف اجتمع الصديقان ونما خلال نقاشهما مشروع الوصول الى جزر التوابل بالدوران حول الكرة الأرضية فى اتجاه الغرب .

لم يكن لدى ماجلان وفاليرو أى أمل فى تنفيذ مشروعهما بمعونة البلاط أو الأثرياء البرتغاليين وكلاهما مغضوب عليه من الملك . ومن ناحية أخرى فان خطتهما تعتمد على الابحار الى الغرب من خط التقسيم أى فى المنطقة الأسبانية ، بل أن فاليرو بخبرته الجغرافية أكد أن جزر مولوكا(١) المنتجة للتوابل تقع فعلا فى نطاق القسم المخصص لأسبانيا . لهذا كان طبيعيا أن يتجه الصديقان الى اسبانيا وفى عام ١٥١٧ عبر ماجلان الحدود مع عبدهنريك الى أسبانيا ، وهناك قابل «ديوجو باربوزا» وهو برتغالى لجأ الى أسبانيا منذ مدة طويلة وترقى حتى بلغ منصب مدير مستودع الأسلحة ، وكان له ولع خاص بالأسفار البحرية . وسرعان ما توثقت بينهما عرى الصداقة حتى تزوج ماجلان ابنته . استطاع باربوزا أن يقدم ماجلان الى « بيت الهند » وهو المؤسسة المخصصة لتمويل مثل هذه المشروعات ، ولكن مديرى المؤسسة رفضوا مشروعه . وعاد الأمل يراود ماجلان مرة أخرى عندما تقدم أحد هؤلاء المديرين يعرض على ماجلان الاشتراك فى تمويل المشروع والتوصية به لدى البلاط . أرسل ماجلان يدعوفاليرو للحاق به ووقف الاثنان يشرحان مشروعهما أمام مجلس البلاط الذى اتضح له أن المشروع ليس ضربا من الخيال ،بل يعتمد على فكرة معقولة : تقول بأن الطريق الى جزر التوابل من الغرب أقصر اليها من الشرق وان هناك ممرا مائيا يصل بين المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى .

لسنا نعرف الآن على وجه التحقيق ما اذا كان ماجلان يعلم يقينا بوجود هذا الممر . فقد كانت الفكرة الشائعة ان أمريكا الجنوبية تمتد حتى القطب الجنوبى وتفصل تماما بين المحيطين . فهل سبق أحد ماجلان الى رؤية هذا الممر المائى ؟ أم أنه أخذ مصب نهر لابلاتا الذى يقع على الخرائط الى الشمال من مضيق ماجلان على أنه الممر المنشود ومما يذكر أن بعض البحارة كانوا قد وصلوا الى مصب هذا النهر الضخم وتوغلوا فيه ظنا منهم أنه مضيق بحرى ولكنهم ارتدوا على أعقابهم أمام عنف التيار . واذا كان هذا الفرض صحيحا فان ماجلان يكون

(١) جزر مولوكا Molucca أو جزر التوابل هى مجموعة الجزر فى ارخبيل الملايو التى تقع الى الشمال الغربى من استراليا بين جزر سلبيس Celebes وغينيا الجديدة وهى جزء من جمهورية اندونيسيا • عرفها العرب منذ القرن العاشر ، وبلغها البرتغاليون عام ١٥١٢ ، واستعمرها الهولنديون سنة ١٦٠٥ •

قد أسس مشروعه على فكرة خاطئة . والأقرب الى التصديق هو أن أحدا لم يسبق ماجلان الى هذا المضيق الذى يعرف باسمه ، ولكنه كان يعتقد اعتقادا جازما بوجوده ، ولولا هذا ما وافق البلاط الأسبانى على تسليمه قيادة هذه البعثة . ففى ٢٢ مارس ١٥١٨ وقع شارل الخامس ملك أسبانيا على عقد يعطى ماجلان وفاليرو الحق فى خمس سفن مجهزة ، ومؤونة لمدة عامين ، ونصيب وافر من الأرباح . وتعطينا التعليمات الصادرة لماجلان مدى الاحترام لخط التقسيم بين أسبانيا والبرتغال . تقول التعليمات . عليك أولا أن تذهب مصحوبا بالحظ السعيد لتستكشف هذا الجزء من المحيط الذى يقع فى حدودنا وداخل نطاقنا .. وعليك أيضا أن تكتشف فى هذه الأجزاء ما لم يكتشف بعد ، بحيث لا تكتشف أو تفعل أى شىء فى حدود نطاق صاحب الجلالة ملك البرتغال . أو لصالحه ولكن فى حدود نطاقنا فقط ..

شغل ماجلان خلال الأشهر التالية بالاعداد لهذه الرحلة الطويلة . وكان عليه أن يعد العدة لكل الاحتمالات والأجواء ، فليس هناك من يعرف كم تطول هذه الرحلة وأى ظروف سوف تقابلها . ولم يترك ماجلان شيئا لمساعديه بل أشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة فى اعداد سفنه وتموينها. وأمضى ماجلان أياما طويلة من العمل المرهق وأوقاتا صعبة فى مكافحة دسائس الحاسدين والناقمين عليه والتغلب على الصعوبات الادارية والمالية التى كان يقيمها أمامه موظفو « بيت الهند » . ولكن المتاعب الخطيرة كانت تلاحقه من وطنه الأصلى البرتغال ، فقد ساء ملكها أن يلقى هذا الرجل المتمرد مثل هذا النجاح فى البلاط الأسبانى بالاضافة الى خشيته نجاح المشروع بالاستيلاء على جزر التوابل .

وكانت البرتغال تكسب ثروات طائلة من تجارة التوابل بالرغم من أنها لم تحتل جزر التوابل بل عرفت الطريق البحرى اليها فقط . وقد حاول رسل الملك منع ماجلان من القيام بمشروعه بالوعد تارة ثم بالوعيد تارة أخرى ثم بالضغط على ملك أسبانيا لتأجيل المشروع . ولما فشلت كل هذه المحاولات لجأ العملاء الى المؤامرات والفتن يحيكونها له بين رجاله ومعاونيه من الأسبان. وخرج ماجلان من هذه المآزق منتصرا ، بل زادته هذه المتاعب ثقة بنفسه ، ورفعت من أسهمه أمام البلاط الاسبانى .

وفجأة قرر شريكه فاليرو الانسحاب من المشروع بعد أن أعطى ماجلان خرائطه ووثائقه . فقد أكد له بعض المنجمين أنه لن يعود حيا من هذه الرحلة . وكان هذا ضربة جديدة من الحظ لماجلان الذى عانى كثيرا من طباع شريكه مثل سرعة غضبه وميله للمشاكسة . واذا كانت هذه الصفات شيئا محتملا على البر ، فانها تصبح أمرا خطيرا فى البحر أثناء رحلة طويلة غير مأمونة العواقب .

تركلنا بيجافيتا فى كتابه وصفا تفصيليا لأسطول ماجلان . كانت السفن الخمس التى وضعت تحت قيادة ماجلان هى : سانتو ، أنطونيو ، ترينيدا ، كونسبسيون ، فيكتوريا وسانتياجو وكانت حمولاتها بالترتيب ١٢٠ و ١١٠ و ٩٠ و ٨٥ و ٧٥ طنا ، وهى بمقاييسنا الحالية سفن ضئيلة بالنسبة للمهمة الشاقة التى تنتظرها . اختار ماجلان السفينة الثانية ترينيداد كسفينة للقيادة يرفع عليها رايته . وحملت السفن عددا من الخرائط وأدوات الملاحة وكتاب فاليرو القيم عن خطوط العرض . وزودت مخازنها بكميات هائلة من الأطعمة

والأدوية والأسلحة والبضائع التى تصلح للتبادل مع الأهالى . أما قائمة الرجال فكانت تضم ٢٦٨ رجلا من الأوربيين والأفريقيين والآسيويين. وبالاضافة الى ماجلان كان يوجد ٣٦ من البرتغاليين كان بينهم كل ضباط الملاحة على السفن .

وفى وسط هذا الخليط العجيب من الرجال كان يوجد شاب ايطالى انضم الى الحملة فى اللحظة الأخيرة وكان يبدو أقل الرجال فائدة فاذا به أكثرهم أهمية وشهرة ، فقد أصبح أنطونيو بيجافيتا — دون ترتيب أو اعداد — راوى الرحلة ومؤرخها .

كتاب أنطونيو بيجافيتا :

لم يكن فى حسبان بيجافيتا عندما غادر بلدته فينسيا الى أسبانيا أنه سوف يبدأ رحلة طويلة تطوف به حول الأرض . فقد جاء هذا النبيل الايطالى الى برشلونة فى صحبة مندوب البابا لدى البلاط الأسبانى . وعندما سمع عن هذه الرحلة العجيبة التى سيقوم بها ماجلان ، تقدم الى الملك يطلب الاشتراك فى هذه الرحلة فأوصى به ماجلان . ويبدو أن بيجافيتا كان شديد التعلق بالمشاهدات التى ترد فى كتب الرحلات،ولديه رغبة جارفة الى السفر والتنقل فى البلاد التى اكتشفت حديثا . ويرجح أنه قرأ بعض كتب الرحلات المعاصرة مثل كتاب مواطنه أمريكو فسبوسى الصادر عام ١٥٠٧ والذى أتى فيه على وصف رحلاته الى أمريكا التى أطلق أسمه عليها. ويتضح من كتابات بيجافيتا أن الباعث الأساسى له على الاشتراك فى هذه الرحلة هو الرغبة فى مشاهدة عجائب الدنيا . وهو ينفرد بهذا عن باقى هذه المجموعة من المغامرين الطامعين فى الثروة والربح .

سوف نعرض فيما يلى لوصف الرحلة كما كتبها بيجافيتا ونورد بعض مقتطفات من كتاباته . وسوف نرى فى أسلوبه نوع من السذاجة وطيبة القلب ، فهو يصدق البحارة ويسجل كل ما يسمعه منهم من مبالغات وأكاذيب بعد أن عرفوا أنه حديث العهد بالحياة فى البحر . وهو أحيانا يبدو كأنه بعيد عن مجرى الحوادث وسير الأمور بين رجال القيادة ، فهو لم يفطن تماما للخلاف بين ماجلان وربابنة السفن والأسبان . ولكنه فى نفس الوقت يقوم بدور المخبر الصحفى الصغير الذى يسجل بدقة كل مشاهداته ، ويهتم بالتفاصيل الكثيرة ، فلا يترك شيئا دون أن يدونه . وهو بذلك يعطينا سجلا رائعا وطريفا لهذه الرحلة ، يبلغ أحيانا حدا كبيرا من الحيوية ، ويصل فى بعض الأماكن من الكتاب الى الحد الذى يعتبر معه مرجعا علميا خليقا بالثقة. وقد بلغ من دقته أنه دون فى مذكراته الكلمات التى سمعها من سكان بتاجونيا فى جنوب أمريكا الجنوبية . وكان يتحدث الى الأهالى بالاشارة . ويرى ستيفان زفايج أن بيجافيتا له الفضل فى وضع أسس أول قاموس للغات الأمريكية .

بقلم أنطونيو بيجافيتا

— ١ —

عن التحاقه بالبعثة

فى عام ١٥١٩ كنت فى أسبانيا فى بلاط شارل الخامس . وكنت أعرف من الكتب التى قرأتها ومن التحدث الى الرجال ذوى الخبرة ، أنه يمكن رؤية أشياء مدهشة بالسفر فى المحيط . وقد صممت أن أرى الأشياء بعينى رأسى . وسريعا ما حانت الفرصة لى . فقد علمت أن أسطولا من خمس سفن كان تحت الاعداد فى أشبيليه ، بقصد الكشف عن جزر مولوكا ، التى نحصل منها على توابلنا، وأن فرديناند ماجلان ، وهو سيد برتغالى ، عبر المحيط أكثر من

مرة ، وصاحب سمعة طيبة ، قد عـين قائدا عاما للبعثة . فاتجهت لذلك الى برشلونة لألتمس اذن صاحب الجلالة كي أكون عضوا فى هذه البعثة ، وقد منحت هذا الاذن . وعندئذ ذهبت بالبحر حتى مالاجا ومن هذه المدينة الى أشبيلية برا ، حيث انتظرت ثلاثة أشهر قبل أن تكون البعثة مستعدة للرحيل .

— ٢ —

من أشبيلية الى لابلاتا

قرر القائد العام فرديناند ماجلان ان يقـــوم برحلة فى المحيط ، حيث تهب الرياح بشدة ،وتسود العواصف . كما صمم على أن يأخذ مسارا لـم يستكشفه أى ملاح من قبل ، ولكنه حرص على ألا يكشف هذه المحاولة الجريئة حتى لا يحـاول أحد أحباط خطته بالمبالغة فى الأخطار التى تتهدده، فيضعف من شجاعة بحارته . ويضاف الى أخطـار هذه الرحلة الظروف غير الملائمة للسفن الأربـع الأخرى اذ أنها تحت امرة قباطنة يكرهونه لانه برتغالى بينما كانوا هم من الأسبان .

وفى يوم الاثنين العاشر من أغسطس ١٥١٩ ، تحركت الحملة هابطة النهر من أشبيلية فى قوة من ٢٣٧ رجلا ، وهى مجهزة بكل شيء ضرورى .

وفى العشرين من سبتمبر غادرنا سان لوكار ، وفى اليوم السادس والعشرين بلغنا واحدة منجزر كانارى التى تسمى تاناريف . وتوقفنا بها ثـلاثة أيام حيث استطعنا أن نتزود بالأخشاب والمياه .

وفى يوم الاثنين الثالث من أكتوبر أبحرنا فى اتجاه الجنوب . ومررنا بين الرأس الخضراء وجزرها وبعد أن تحركنا على طول ساحل غينيا لبضعة أيام بلغنا خط عرض ٨° شمالا حيث يوجد جبل يسمى سيراليون Sierra Leone . وقد قابلتنا هنا رياح مضادة أو رياح هادئة مع أمطار استمرت حتى خط الاستواء . (وهذه هى الصـــفات الغالبة على الجو فى منطقة الركود doldrums التى توجد قرب خط الاستواء عادة) .

وبعد أن عبرنا خط الاستواء لم نستطع رؤية النجم القطبى ، ومن ثم اتجهنا الى الجنوب جنوبه غربى قاصدين البرازيل فى خط عرض ٣٠/٢٣° جنوبا . وهنا حملنا السفن بكمية طيبة من الطيور والبطاطس ، ونوع من الفاكهة يشبه مخـــروط الصنوبر ، ولكنها شديدة الحلاوة ولها نكهـة ممتازة (يقصد الأناناس) ، وقصب الســـكر وأشياء أخرى . وكنا قد دخلنا مرفأ ريودى جانيرو هذا فى الثالث عشر من ديسمبر . وكانت الشمس عمودية عند الظهر ، وقد عانينا هنا من الحرارة أكثر من وقت مرورنا بالخط (أى خط الاستواء ومن المعروف أنالشمس تصلأثناء الشتاءالى أقصىنقطة لها جنوبا على مدارالجدىعند خط عرض ١/٢ ٢٣° جنوبا) . ويبنى البرازيليون بيوتا طويلة ويطلقون عليها اسم « بوى boi » . ويناممون على شباك من القطن يسمونها « هاماك hamaks » يثبتونها من طرفيها بين عمودين قويين . وقد يحتوى المنزل الواحد أحيانا مائة رجل مع زوجاتهموأطفالهم ولهذا يوجد دائما صخب شديد فيها . أما قواربهم، التى يسمونها « كانو Canoes » ، فانها تصنع من جذع شجرة ، مفرغ بواسطة حجر مدبب — لأن الحجر هو البديل عندهم للحديد ، الذى لا يوجد لديهم ، وهذه الأشجار طـــويلة جدا حتى أن القارب الواحد يستطيع أن يحمل ثلاثين أو حتى أربعين شخصا وهم يجـــدفون بمجاديف تشبه « مطارح » الخباز .

— ٣ —

من لابلاتا الى مضيق ماجلان

مكثنا ثلاثين يوما فى هذا الميناء ، وبعدها أستأنفنا خط سيرنا ، فتحركنا على طول ساحل هذه البلاد حتى خط عرض ٣٤° جنـوبا ، حيث وجدنا نهرا كبيرا من المياه العذبة (نهر لابلاتا)

وكان يظن أنه ليس نهرا لكن قناة ، تصل الى البحر الجنوبى (المحيط الهادى) ، ولكن وجد أخيرا أنه نهر حقيقى ، يبلغ عرضه عند المصب سبعة عشر فرسخا (ريودى لابلاتا هو أكثر أنهار العالم اتساعا عند المصب حيث يبلغ عرضه ٢٣٠ كيلو مترا ، وهو فى الواقع مصب لنهرين هما أورجواى وبارانا) . وهنا لقى جوان دى سوليس مع ستين من بحارته حتفهم بواسطة أكلة لحوم البشر بينما كانوا فى رحلة استكشافية مثلنا ، وكانوا قد وضعوا فيهم ثقة كبيرة جدا .

وفى أثناء سيرنا على طول هذا الساحل نحو القطب الجنوبى توقفنا عند جزيرتين وجدناهما آهلتين بطيور البنجوين وسباع البحر فقط . وكان البنجوين كثيرا جدا وأليفا جدا حتى أننا أمسكنا كمية كافية للسفن الخمس خلال ساعة واحدة . وهى طيور سوداء ، ويبدو أنها جميعا مغطاة تماما بريش صغير وانها بدون أجنحة تستطيع الطيران بها . وهى تعيش على الأسماك وحدها .

أما سبع البحر فهو فى حجم العجل ، وله رأس يشبه كثيرا رأس هذا الحيوان . و هو بلا أرجل ومخالبه التى تلتصق بالجسم تشبه الى حد ما أيدينا وهذه الحيوانات تسبح بسرعة كبيرة وتعيش على الأسماك .

غادرنا هذه الجزر لمواصلة خط سيرنا ، فبلغنا خط عرض ٤٩° جنوبا ، حيث اكتشفنا مرفأ ممتازا ، ولما كان الشتاء يقترب (قضت البعثة الفترة من أبريل الى أغسطس ١٥٢٠ وهى فترة الشتاء الجنوبى فى خليج سان جوليان) ، فقد فضلنا أن نجد هنا ملجأ من الجو الردىء . وقضينا خمسة شهور فى هذا المرفأ الذى أعطيناه أسم سان جوليان . وماكدنا نرسو حتى تآمر الربابنة الأربعة فى السفن الأخرى على اغتيال القائد العام . ولكن المؤامرة كشفت ، واعدم اثنان من المتآمرين ، بينما طرد اثنان من الحملة ، وتركوا فى بلاد الباتاجونيين ، وهم سكان هذا البلد ، ويمتازون بطول القامة وقد وجدنا هنا النعام ، كذلك الثعالب والأرانب ، ولكنها أصغر مما لدينا ، والعصافير .

— ٤ —

مضيق ماجـلان

وبمواصلة سيرنا نحو الجنوب ، وفى اليوم الواحد والعشرين من اكتوبر ، عند خط عرض ٥٢° جنوبا ، اكتشفنا مضيقا أسميناه مضيق الأحد عشر ألف عذراء تكريما لهذا اليوم . (وهو المضيق الذى نعرفه اليوم باسم مضيق ماجلان .) ينتهى هذا المضيق فى بحر آخر ، سميناه المحيط الهادى . وهذا المضيق محصور بين جبال عالية مغطاة بالثلج وهو كذلك عميق جدا ، حتى اننا عجزنا عن القاء مرسانا ، الا على مقربة من الشاطىء وبمجرد أن دخلنا هذه المياه ، التى تصورنا أنها مجرد خليج ، أرسل القبطان سفينتين هما سانتو انطونيو وكونسبسيون ليقوم رجالهما بفحص المياه ومعرفة أين تنتهى وفى أى اتجاه تقود .

وفى الليل هبت عاصفة قطيعة استمرت ستا

وثلاثين ساعة ، واضطرتنا الى رفع مرسانا ، واندفعت السفينتان الأخريان حتى نهاية الخليج ، حيث توقعا أن يلقى بهما على الشاطىء ، ولكن فى اللحظة التى استسلموا فيها لنهايتهم ، رأوا فتحة صغيرة أخذوها على أنها مدخل خليج ، فدخلوا منها ، ولما كانوا يتوقعون أن هذه القناة مقفلة فانهم تابعوها ووجدوا أنفسهم فى واحدة أخرى ، وواصلوا سيرهم خلالها الى مضيق آخر يؤدى الى خليج ثالث ، أكبر من السابقين . وعندئذ قرروا أنه من الحكمة أن يعودوا ليقدموا تقريرا الى القائد العام . وعندما سمعنا عن المضيق وبلغنا الخليج الثالث ، وجدنا فتحتين واحدة تتجه الى الجنوب الشرقى والأخرى الى الجنوب الغربى . فأرسل القائد العام السفينتين سانتوا أنطونيو وكونسبسيون الى الجنوب الشرقى لتختبرا ما اذا كانت هذه القناة تنتهى الى بحر مفتوح . وتحركت الأولى فى الحال دون أن تنتظر الثانية . وكان ضابط الملاحة على هذه السفينة هو ايمانويل جوميز الذى يكره ماجلان لأنه برتغالى وكان قد قرر أن يستفيد بظلام الليل ليقطع خط سيره ويعود الى أسبانيا بنفس الطريق الذى جئنا منه . وفى أثناء الليل تآمر مع الأسبان على السفينة ووضعوا القبطان ، الذى كان ابن عم القائد العام ، فى الأغلال الحديدية ونقلوه بهذا الشكل الى أسبانيا . أما كونسبسيون التى لم تستطع اللحاق بسانتو أنطونيو فقد واصلت السير فى القناة منتظرة عودتها دون جدوى .

أما نحن ، على السفينتين الآخريين ، (تحطمت السفينة سانتياجو على الساحل جنوب خليج سان جوليا) فقد دخلنا القناة من الجنوب الغربى ، وبلغنا نهرا أسميناه نهر السردين ، بسبب العدد الكبير من الأسماك من هذا النوع التى وجدناها فيه . وألقينا مرسانا ، وأرسلنا قاربا مع عدد كاف من الرجال ليتفحصوا القناة . وفى اليوم الثالث عاد البحارة وأعلنوا أنهم رأوا الرأس التى تنتهى اليها المضيق وأن هناك بحرا عظيما الذى هو المحيط . وبكينا من الفرح . وسمينا هذا الرأس Il Capo Deseado أى الرأس المرتجاه ، لاننا — فى الحقيقة — ظللنا طويلا ونحن نأمل أن نراها . وعدنا لننضم الى السفينتين الأخريين ووجدنا الكونسبسيون وحدها فأرسلت اشارة لسانتو انطونيو برسالة فى طرفها تقول كيف أن القائد العام سوف يوجه خط سيره وعندئذ دارت السفن الثلاث نحو الغرب .

وفى لحظة دخولنا المحيط ، لاحظنا مطاردة فريدة لأسماك تتبع بعضها البعض . فهناك ثلاثة أنواع من الأسماك تطارد السمك الطائر . وهذه الأسماك عندما تطارد تكون على مقربة من الماء ، وتنشر زعانفها وهى طويلة بدرجة كافية لتستعملها كأجنحة وتطير مسافة مرمى حجر ، ثم تعود بعد هذا الى الماء . وفى أثناء ذلك تستمر أعداؤها فى مطاردتها مسترشدة بظلالها فى الماء ، حتى تقع فريسة لهذه الأعداء بمجرد أن تعود الى الماء . وهذه الأسماك الطائرة تزيد عن القدم طولا ، ولها مذاق طيب .

— ٥ —

عبر الباسيفيكى

وفى يوم الأربعاء ٢٨ نوفمبر تركنا المضيق ، ودخلنا المحيط ، الذى أعطيناه فيما بعد اسم الهادى (الباسيفيكى) لأننا لم نقابل أى جو عاصف خلال رحلتنا فيه . وفى هذا المحيط أبحرنا مدة ثلاثة أشهر وعشرين يوما دون أن نتذوق أى طعام طازج . أما الخبز الذى نأكله فلم يعد جديرا بهذا الاسم ، ولم

يصبح شيئا سوى تراب وديدان أتت عليه . أما الماء الذى أضطررنا لشربه فقد أصبح عفنا وكريها . وفقدنا كثيرا من وزننا حتى اضطررنا كى لا نموت من الجوع انتأكل قطعا من الجلد الذى يغطى القلع الرئيسى لحماية الحبال من التآكل. ولم يكن هذا كل شىء لقد كان أكبر مأساة صادفتنا ، آننا تعرضنا لمرض يجعل اللثة تتورم حتى تختفى الأسنان ، فى كل من الفكين العلوى والسفلى ، بدرجة تجعل المصابين به يعجزون عن مضغ طعامهم . وقد أصيب كثيرون بهذا الداء (مرض الاسقربوط كما عرف فيما بعد) حتى مات تسعة عشر من رجالنا .. وبالاضافة الى هؤلاء الذين ماتوا سقط خمسة وعشرون أو ثلاثون بمرض الغواصيين .. وبهذا بقى قليلون جدا وهم محتفظون بصحتهم .. وفى خلال هذه الشهور الثلاثة والعشرين يوما أبحرنا فى بحر مفتوح وقطعنا أربعة آلاف فرسخ بالكامل فى البحر الباسيفيكى (الهادى) . وقد أطلق عليه هذا الاسم بجدارة ، ففى خلال هذا الوقت لم نقابل أى عاصفة ولم نر أى أرض عدا جزيرتين غير آهلتين . (لعل هذا من قبيل الصدف فى المحيط الهادى الذى تنتشر فيه كثير من مجموعات الجزر) .

ولو لم يعطنا الله حظا فى هذه الرحلة ، لهلكنا جميعا من الجوع فى بحر متسع كهذا . ولا أعتقد أن أحدا سوف يغامر فى المستقبل بعمل رحلة مماثلة .

— ٦ —

جزر اللصوص (جزر ماريانا)

وعندما كنا عند خط عرض ١٢° شمالا (وخط طول ١٤٦ شرقا) يوم الأربعاء السادس من مارس عام ١٥٢١ اكتشفنا فى الشمال الغربى ، جزيرة صغيرة ، وبعد ذلك الى الجنوب الغربى جزيرتين أخرين . ورأى القائد العام أن تتوقف عند أكبرهما للراحة وتموين السفن ، ولكن الأمر أصبح مستحيلا فان سكان الجزر صعدوا الى ظهر سفننا وسرقوا شيئا بعد آخر ، دون أن نستطيع منعهم . ودعونا لأن تتوقف وننزل الى الشاطىء ، وقد بلغوا من المهارة أنهم سرقوا القارب المعلق فى نهاية السفينة . لهذا السبب واصلنا سيرنا فى نفس الاتجاه كما كنا من قبل وأطلقنا عليهم اسم جزر لادرون (أى جزر اللصوص والتى تعرف الآن باسم مجموعة جزر ماريانا نظرا لمهارة سكانها فى السرقة) .

والهواية الرئيسية للأهالى هى التريض فى زوارقهم الشراعية « كانو » وهى زوارق ضيقة جدا ويصنع الشراع من أوراق أشجار النخيل المجدولة مع بعضها وهو يوضع على أحد الجانبين من الزورق وعلى الجانب المقابل يربطون قطعة كبيرة من الخشب، بواسطة أعمدة مثبتة بهاو تمتد من جانب الزورق الى وسطها حتى تحفظه ثابتا . والأهالى هنا سباحون مهرة ، لا يخشون البجرمثل حيوانات الدرفيل . وعلى شواطىء هذه الجزر ينمو نخيل جوز الهند ، التى تمد الأهالى بالطعام والنبيذ والزيت والخل . وثمرة شجرة النخيل هذه فى حجم راس الانسان . وقشرتها الخارجية خضراء وسمكها قدر أصبعين ، وهى مكونة من خيوط يصنعون منها حبال قواربهم .

— ٧ —

نهاية ماجلان

بعد أسبوع واحد من مغادرة جزر ماريانا وصلت البعثة الى جزر الفلبين التى سميت كذلك نسبة الى فيليب ابن الملك شارل . ظن ماجلان أولا أنه وصل الى جزر مولوكا الأندونيسية ولكنه كان قد أخطأ

تقدير وسار فى طريق تبعد عشر درجات شمالا عن الطريق الحقيقية وأدى هذا الخطأ الى اكتشاف جزر الفلبين التى لم يتخيل ماجلان وجودها وأصبحت الفلبين من ممتلكات أسبانيا حتى تنازلت عنها للولايا. المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٨ عقب الحرب الأسبانية الأمريكية . وفى جزيرة ماساو التى تعرف الآن باسم ليماسافا ، استطاع هنريك عبد ماجلان أن يتفاهم مع الأهالى بلغة الملايو فأصبح بذلك أول انسان يكمل الرحلة حول الأرض .

واصل ماجلان الرحلة ليصل الى جزيرة سيبو Cebù الفليبينيه التى كانت مركزا هاما لتجارة التوابل ، حيث استقبل بحفاوة كبيرة من الأهالى وملك الجزيرة الذى أعلن اعترافه بسيادة ملك أسبانيا ، واعتناقه المسيحية . وأشرف ماجلان على النصر الكبير الذى يحلم به ، ولكن طالعا غير سعيد جعله يعرض مساعدته على ملك الجزيرة فى تأديب جزيرة ماكتان Mactan المجاورة . ولكن الأمور تسير فى غير صالحه ويقتل ماجلان وهو فى قمة نجاحه بسبب حماقة لا لزوم لها .

وفيما يلى يحكى بيجافيتا قصة المعركة ونهاية ماجلان :

تركنا السفينة فى وسط الليل ، وكنا ستين رجلا ، مسلحين بالخوذات والدروع . وبلغنا ماكتان قبل طلوع الفجر بثلاث ساعات . ولم يبدأ القائد بالهجوم ولكنه بعث الى العدو رسالة تقول أنه اذا أعلنوا اعترافهم بسيادة ملك أسبانيا ، وأطاعوا ملك سيبو المسيحى ودفعوا الجزية التى يطلبها ، فانهم سوف يعتبرون أصدقاء وألا فأنهم سوف يعانون من قوة حرابنا . ورد أهل الجزيرة ، بأن لديهم حرابا كذلك وان كانت عصى من الخيزران مدببة الأطراف ، عولجت أسنتها بالنار فتصلبت . وانتظرنا حتى طلع ضوء النهار . فقفزنا الى الماء الذى كان يرتفع حتى أفخاذنا لأن القوارب لم تستطع الاقتراب أكثر الى الشاطىء بسبب الصخور وعدم استواء القاع . وكان عدد الذين نزلوا الى البر تسعة وأربعين فقط لأن أحد عشر تركوا فى حراسة القوارب .

ووجدنا من أهل الجزيرة ألف وخمسمائة موزعين فى ثلاث فرق ، أسرعوا فى الهجوم وهم يصدرون صيحات مفزعة . وأطلق محاربونا النار من مسافة لمدة نصف ساعة دون أن يتركوا أقل أثر على الأعداء لأنه رغم أن طلقاتنا وسهامنا اخترقت دروعهم المصنوعة من الخشب الرقيق ، بل جرحتهم أحيانا فى أذرعهم ، فان هذا لم يجعلهم يتوقفون لان الجروح لم تعجز فقط عن قتلهم بل زادتهم جرأة وغضبا . وبالاضافة الى هذا فانهم أمطرونا سحبا من سهام الخيزران ورماح مقواة فى النار ، وأحجار بل وقاذورات ، حتى أصبح من الصعب أن ندافع عن أنفسنا . وأصيب القائد بسهم مسموم فى ساقه ، فأصدر أمره بالتراجع ببطء ونظام ، ولكن الأغلبية من رجالنا لجأوا الى التراجع بسرعة حتى لم يبق حول القائد سوى سبعة أو ثمانية رجال . وعندما رأى الهنود أن ضرباتهم لا أثر لها عندما تصوب لأجسامنا ورؤسنا بسبب دروعنا ولاحظوا أن أرجلنا غير مغطاة ، صوبوا سهامهم وحرابهم وأحجارهم نحوها فى أعداد لا نستطيع أن نحمى أنفسنا منها . أما مدافعنا الموجودة فى قواربنا فلم يكن لها أى فائدة ، لأن عدم استواء القاع بالقرب من الساحل لم يسمح للقوارب بالاقتراب من الشاطىء .

وتراجعنا ببطء ونحن لانزال نحارب . حتى ركبنا القوارب ، عندما جددوا الهجوم بعنف . وعندما عرفوا قائدنا صوبوا معظم قذائفهم نحوه حتى أن خوذته سقطت مرتين من على رأسه . وأخيرا استطاع واحد من الأهالى ان يدفع طرف حربته خلال قضبان خوذته ليجرح القائد فى جبهته ، الذى دفع بحربته فى الحال فى جسد مهاجمه لتبقى فى الجرح . وعندئذ حاول أن يستل سيفه ولكنه لم يستطع فان ذراعه الأيمن كان قد جرح بشدة وعندما تبين الهنود هذا تجمعوا عليه وضربه أحدهم ضربة قوية بالسيف فى ساقه الأيسر فسقط على وجهه . وعندئذ وثبوا عليه فى الحال يفتكون به وهكذا هلك فردناند ماجلان مرشدنا ونورنا وحامينا .

حدثت هذه المعركة التعسة فى السابع والعشرين من أبريل ١٥٢١ . وهلك فيها ثمانية من رجالنا وأربعة من الهنود بالاضافة الى قائدنا ، أما الذين استطاعوا الهرب فان القليل منهم بلغ السفن دون أن يجرح . وبعد موت قائدنا انتخبنا فى مكانه حاكمين ، هما ادوارد باريوزا وهو برتغالى وجوان سيرانو وهو أسبانى . وفى اليوم التالى أرسل ملك سيبو المسيحى الى حاكمينا الأثنين يخبرهما أنه قد أعد هدية من الأحجار الكريمة لملك أسبانيا ودعاهما للحضور والغذاء معه . ولكن مرشدنا الملاحى جوان كارفاجو اشتم رائحة الخيانة من الهنود ، فعاد فى الحال الى السفن . وبمجرد عودته سمعنا صيحات عالية وأنينا . وعندئذ رأينا جوان سيرانو قادما يسوقه الأهالى نحو الشاطىء ، وهو مجروح ومقيد اليدين والقدمين . وسألناه عما أصاب زملاءه وعما حل بمن كانوا فى صحبته ، فعرفنا أنهم اغتيلوا جميعا . وطلب منا أن نفديه ببعض مالدينا من البضائع ولكن جوان كارفاجو، رغم أنه صديق قديم له ، رفض مع غيره أن يتفاوضوا لاطلاق سراحه ، ولم يسمحوا لأى من زوارقنا بالاقتراب من الشاطىء ، والسبب فى هذا هو أنه فى حالة وفاة كل من الحاكمين ، سوف تكون القيادة له . واستمر جوان سيرانو يستدر عطف صديقه بالتأكيد له أنه سوف يذبح فى اللحظة التى سوف نغادر فيها الشاطىء وعندما وجد فى النهاية أن كل تضرعاته لم تثمر ، صب لعناته وصرخ الى العدالة الالهية أن تضع تبعة دمه على صديقه جوان كارفاجو . ولكنه على الرغم من هذا لم يعره أى اهتمام وأبحرنا حتى دون أن نسمع عما حاق به فيما بعد .

— ٨ —

عن شخصية ماجلان

لقد كان من أهم فضائله الثبات فى أشد المواقف خطورة . وكان يحتمل الجوع فى البحر أكثر منا . وكانت خبرته عظيمة بالخرائط البحرية ، وكان يعرف أحسن من أى شخص فى فن الملاحة . والدليل الأكيد على هذا ، أنه استطاع أن يعرف بعبقريته وشجاعته ودون أن يضرب له أحد المثل ، كيفية الدوران حول الكرة الأرضية ، وهو الأمر الذى كاد يتمه .

— ٩ —

جزر التوابل

(غادرت السفن جزر الفلبين ولم يبق على ظهورها سوى ١١٥ رجلا . وتتيجة لهذا العجز فى عدد الرجال ، اضطرت البعثة الى الاستغناء عن السفينة كونسبسيون فأغرقتها بعد أن نقلت

منها كل مايمكن الانتفاع به . ولم يبق من أسطول ماجلان غير سفينة القيادة ترينيداد والسفينة الصغيرة فكتوريا . وسارت السفينتان على غير هدى ودون قيادة حازمة لمدة شهور . وعلى مقربة من ساحل بورينو انتخب قائد عام جديد هو سباستيان دلكانو ، قبطان السفينة فيكتوريا ،وفى ٨ نوفمبر وصلت السفينتان الى جزيرة تيدور (Tidor) احدى جزر مولوكا أو جزر التوابل التى كانت حلم ماجلان الكبير) .

وفيما يلى وصف بيجافيتا لجزر التوابل : —

شكرا لله لقد عدنا (الى العالم القديم) ، وكتعبير عن فرحنا أطلقنا مدافعنا الكبيرة ، وليس عجيبا أن نكون مغتبطين الى هذا الحد ، فقد مضى علينا فى البحرسبعة وعشرون شهرا الا يومين ونحن نبحث عن جزر مولوكا ، وقد زرنا عددا كبيرا من الجزر نبحث عما بلغناه الآن . ولكن يجب أن أذكر أن أقل عمق وجدناه بالقرب من هذه الجزر كان كمائة قامة ، ولهذا السبب يجب أن يهمل كل ما أشاعه البرتغاليون ، فحسب أقوالهم تقع جزر مولوكا فى بحار لايمكن الملاحة فيها بسبب الشعب ، والجو المظلم المليء بالضباب .

وفى احدى الأمسيات ، بعد وصولنا الى تيدور صعد الى ظهر السفينة برتغالى يدعو الفونسو دى لوروزا ، عرفنا منه أنه أمضى ستة عشر عاما فى الهند ، قضى منها عشرة فى جزر مولوكا ، وقد تكتم ما اذا كان قد جاء مع البرتغاليين الأوائل الذين استقروا هناك هذه المدة . ولكنه أضاف أن سفينة كبيرة قد حضرت من مالقه من أحد عشر شهرا لتنقل حمولة من التوابل ، وقد أخبر القبطان لوروزا أن لديه أخبارا أن حملة من خمس سفن قد أبحرت من أشبيلية تحت قيادة فردناند ماجلان لتستكشف جزر مولوكا لحساب ملك أسبانيا وأن ملك البرتغال الذى غضب كثيرا لهذه البعثة ، لأن واحدا من رعاياه قصد أن يلحق به ضررا ، قد أرسل سفنا الى رأس الرجاء الصالح، لمقابلة ماجلان كما أرسل تعليمات الى القائد العام فى الهند ليرسل ست سفن حربية الى جزر مولوكا لمواجهة ماجلان ولكن القائد العام لم يفعل ذلك بسبب الحرب بين البرتغال والأتراك فى عدن ، التى احتاج فيها الى كل سفينة .

وكان لما ذكره لوروزا أهمية كبيرة لنا ، لهذا حاولنا اغراءه ليبحر معنا الى أوروبا ، مبينين له ماينتظره من وظيفة عالية من ملك أسبانيا .

وذهبت الى الشاطيء لأرى شجرة القرنفل . وتبلغ هذه الأشجار ارتفاعا كبيرا ،وجزعها فى حجم جسم الانسان وتشبه أوراقها أوراق الغار ،وقلفها له لون زيتونى . وينمو القرنفل فى نهاية فروع صغيرة ، ويكون القرنفل أبيض فى البداية ، ثم يأخذ لونا أحمر عندما ينضج ، ولونا أسود عندما يجف . ويمتلك كل ساكن بعض أشجار القرنفل التى يرعاها بنفسه ويجمع ثمارها ، وتنتج هذه الجزيرة كذلك أشجار جوز الطيب ، التى تشبه الكستناء الذى ينمو لدينا فى مظهر الثمرة والأوراق .

وتبلغ شجرة القرفة خمس الى ست أقدام فى الطول ، ولا يتعدى سمكها أصبع اليد ، ولا يزيد عدد أفرعها عن ثلاثة أو أربعة ، أما ورقتها فتشبه أوراق شجرة الغار . والقرفة التى نستعملها هى قلف الشجرة الذى ينزع مرتين فى العام .

وفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من نوفمبر

بجاء الملك لزيارتنا وذكر لنا أنه قد أعد لنا بمناسبة مغادرتنا جزيرته مالم يفعله أحد من أجداده لأحد من قبل وأضاف أنه من المعتاد فى تيدور أن يقيم الملك حفلا لبحارة السفينة عندما تتسلم الجزء الأول من شحنة القرنفل ، وأن يقيموا الصلوات داعين لهم بسلامة العودة .

ولكن هذه الدعوة أثارت شكوكنا وقد زادمنها أننا عرفنا أن ثلاثة من البرتغاليين قد اغتيلوا فى نفس البقعة التى تزودنا منها بالماء ، بواسطة بعض الأهالى المختبئين فى غابة قريبة .

ثم تذكرنا ماحدث فى الحفل المشئوم فى سيبو ، لهذا رفضنا أن نقبل ضيافتهم ، بحجة أننا ننوى الابحار فى أول فرصة يتحسن فيها الجو .

وجاء الملك على ظهر السفينة فى نفس اليوم ، وقال انه شعر بكثير من الأسف لفراقنا المفاجىء . ثم أقسم فى حضورنا جميعا بالله والقرآن ، أنه سوف يبقى دائما صديقا مخلصا لملك أسبانيا . لهذا أطلنا اقامتنا فى تيدور أسبوعين أخرين ، وأخذنا حمولة كبيرة من القرنفل .

وعندما انقضى هذا الوقت ، وأصبح كل شىء معدا للرحيل أقلعت السفينة فيكتوريا أولا وخرجت الى البحر منتظرة السفينة ترينداد ، ولكن هذه السفينة ظلت مدة طويلة ترفع المرسى وعندما فعلوا ذلك تبين البحارة أن الماء يتسرب اليها . فأنزلوا جزءا من الحمولة ، حتى يتمكنوا من البحث عن الثقب ويوقفوا تسرب المياه ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا مكانه . (وهنا قرر القائد العام ترك السفينة ترينداد ببحارتها لاصلاحها والعودة الى أسبانيا بنفس الطريق عبر المحيط الهادى . وبعد اصلاح السفينة أبحرت فى اتجاه بنما ضد الرياح التجارية الشمالية الشرقية ، ولكن البحارة قاسوا كثيرا من قلة الطعام ، فقفلوا راجعين الى جزر مولوكا ، ولكنهم وقعوا فى أيدى البرتغاليين فساقوهم مقبوضا عليهم الى مستعمرة جوا البرتغالية . ولم يعد من بحارة هذه السفينة الى أسبانيا سوى عدد قليل وبعد عدة سنوات قاسوا كثيرا من الحرمان) .

— ١٠ —

رحلة العودة

(أبحرت فيكتوريا بين مجموعة جزر المولوكا حتى بلغت جزيرة تيمور Timor الأندونيسية جنوبا . وفى ٢٢ فبراير ١٥٢٢ غادرت فيكتوريا الجزيرة بقيادة دلكانو فى طريق عودتها الى أسبانيا وكان عليها أن تقطع الرحلة بأكملها متخفية عن أعين البرتغاليين ، ودون أن تلجأ الى أى من الموانى البرتغالية على طول الطريق . وكانت رحلة شاقة هلك فيها كثير من البحارة جوعا ، وفى ٦ مايو مروا برأس الرجاء الصالح بعد أن عبروا المحيط الهندى فى طريقهم الى المحيط الأطلنطى) .

لقد كادت مؤونتنا الآن أن تنفد ، واذا لم تكن السماء قد هيأت لنا جوا طيبا ، لكنا قد هلكنا جميعا من الجوع . وفى التاسع من يولية ، وكان يوم الأربعاء شاهدنا جزر كاب فردا (جزر الرأس الخضراء تحت الحكم البرتغالى فى وسط المحيط الأطلنطى) ، وألقينا مرساتنا أمام تلك الجزيرة المسماه سانت جاجو .

ولما كنا فى بلد غير صديق ، فقد ذكرنا للرجال فى القارب الطويل أن يتكلموا بطريقة يفهم منها السكان أننا قادمون من شواطىء أمريكا وليس من رأس الرجاء الصالح . وقد كسبنا ثقتهم وتم تحميل

قاربنا الطويل مرتين بأرز من الشاطىء مقـــابل بضائع مختلفة . وحتى تتأكد أن يومياتنا مضبوطة سألنا على الشاطىء عن اليوم فقيل لنا أنه الخميس وقد أدهشنا هذا كثيرا ، فان اليوم الذى يظهر فى يومياتنا هو يوم الأربعاء . وقد اكتشفنا فيما بعد أنه ليس هناك أى خطأ فى حساباتنا لأنه بما أننـا أبحرنا باستمرار فى اتجاه الغرب متتبعين مســار الشمس ، فاننا عند عودتنا الى نفس المكان الذى غادرناه ، نكون قد كسبنا بالطبع أربعة وعشرين ساعة عن هؤلاء الموجودين فى نفس البقعة .

(وتعد ملاحظة بيجافيتا هذه من أهم ما عادت به الرحلة ، وسوف تثير هذه الظاهرة اهتمام العلماء فى القرن السادس عشر)

ولكن القارب الطويل احتجز فى المرة الثالثة ، ولما كنا نشك أن هناك خطة موضوعة ضد سفينتنا فقد قررنا أن نهرب فى الحال . وقد عرفنا فيمـ بعد أن القارب قد أوقف لأن واحدا من البحـارة أفشى سرنا وذكر أن القائد العـــام قد مات وأن سفينتنا هى السفينة الوحيدة التى عادت الى أوربا من أسطول ماجلان .

شكرا للرعاية الالهية ، فقد دخلنا فى السادس من سبتمبر خليج سان لوكار ، ولم يبق من طاقم السفينة الذى كان مكونا من ستين رجلا عنـدما غادرنا جزر مولوكا ، سوى ثمانية عشر معظمهم مرضى .

وفى يوم الاثنين الثامن من ســبتمبر ١٥٢٢ ، ألقينا مرسانا أمام الرصيف فى أشبيليه ، وأطلقنا كل مدافعنا ، تحية لقيامنا بالدوران حول الكرة الأرضية من الشرق الى الغرب .